أربعة قرون من الظلمات لوحيد القرن

لطفية الدليمي
(روائية وقصاصة)

ليلة ١٦ كانون الأول ١٩٩٨

ـ ١ ـ

المدن ههُنا لا تغيِّر عاداتها في الشتاء..

شارع الرشيد يكاثر الأعمدةَ على الرواق الطويل المستجير بأنفاس دجلة.. يكاثرها حتى تذوب الظلالُ على جبين «أبو نوّاس».

النوارس تَنْعس في أكمام دجلة، أو تشاكس الجسرَ الذي يتشهّى عبوراً:

تحت وابلٍ من حمام،

أو زخّةٍ من حليب،

أو مزنةٍ من ثمار البرتقال..

نحن هنا لا نغيّر عادات النهار:

* مدفأة نُترعها بالنفط المقدّس

تخطف نصفَ فرصتنا للنجاة..

* لا نرجئ شايَ الساعة الخامسة إلى ما بعد القيامة حين يعلو صفيرُ النذر..

فكلنا نعلم أنّهم قادمون...

الشوارع تدري، وكذلك الأعمدةُ والنوارسُ وأبو نوّاس وهارون الذهبي وكأسُ الشاي المخمّر بالهيل.

نعلم كلنا أنهم سيأتون بأنيابٍ فولاذ وشهواتِ صنيعٍ قديم..

يهيلون الجمرَ فوق مياه الخليقة؛ هل رأيتم مياهاً تموت بنار؟..

لذلك نضحك.. ولا نغيّرُ عاداتنا. نضحك. في رشفة الغيظ والشاي وعد بيقظة المتربصين.

نضحك في الدعابات الواخزة..

فلا جدوى قطُّ من تغيير عاداتنا أو الركونِ إلى قرى تضرم التقاويم في تنور خبزها.. لاجدوى من قرى تضحّي بالنساء دِيةً لقتيل.

ـ ٢ ـ

السواد الجرانيتي.. السواد.. تقول نشرات الأخبار:

يتقدم حثيثاً إلى المنصّات البابلية،

يسيل إلى قصر باب الذهب..

يضرِّج البابَ الوسطانيَّ في سور بغداد..

ويزحف إلى مسجد الجنائز عند ضريح الشيخ الصوفيّ معروف الكرخي..

لكنه يخطئ القرميد، يخطى صفائح التبر والفسيفساء وأبراج الساعات، ويتوطّن بحنان «التوماهوك» وسط رئاتنا الضاحكة..

ـ ٣ ـ

إذن..

تجاهلوا ما تفيض به الموانئُ والنجودُ من النوايا،

وانسوْا نحيبَ تماسيح الرمال التي توسّق السفن بمناديل ورقية لدموعِ مآتمنا الطازجة..

إذن،

رُصّوا الأقداحَ الفارغة على موائد الملهاة، لنعزف فوق حافات البلور الصدّاح رنينَ الظمإ..

ضعوا الأطباقَ الخاوية باتجاه المحاق، لعلها تقنص لنا غيثاً من يقطين أو سنابلَ من بيْدر النسيان، في مساء «الكروز» الأرجوانيّ..

ها نحن هنا..

ها إنّ البلاد تقوم إلى مئذنةٍ من قمح، وتراتيلَ من كازولين، لتخبز أرغفةً للعشاء الذي لن يكون أخيراً كما تدعّي الطائراتُ أو يتمنّى الجياع.

ـ ٤ ـ

الأشباح الأليفة.. أقراننا الشّفافون كالهواء

الذين يطوفون في برزخ الرهان منذ عشرين حولاً

ويتدفقون حول أحزاننا في كل هول، ونحن نلوذ بالغرف المعتمات ونرتاب بوقع الخطى والهمهمة..

الأشباح الحزينة ـ التي لم تغادرنا مذ داهمتنا الحروبُ ـ تعلّق الخَرزات الزرقَ وحدواتِ الجيادِ على رجفة

الطفل واكتئاب الآنسات..
وتنسحب الآن ـ وقد حصّنتنا بالتعاويذ ـ إلى بُرهةٍ فوق الرجوم..
وترسل الريحُ سربَ غرانيق كي تطول أعمارُنا،
وتُغوي النشيجَ بصيحات الكراكي العائدات من أقاصي الفصول، ثم تدثّر أحلامنا بالقنوط الوثير.

ـ ٥ ـ

تقول التقاويمُ الحجرية:
المحبة يا أبناء المياه ميثاقُ خلودكم،
لا تعترفُ بزوال الجمال.. فلا تغلقوا الأسى على آمالكم المتهاوية.
* القمر يحتسي رحيقَ القرابين، ويُدْمِن تحطيمَ التقاويم في محاقه، مُشْهِراً خدعةَ الأبدية على حدقات الماء.
رغم ما يحدث للريح والقمر والنوافذ والتقاويم التي تتهاوى على سواحل بحر الموت، فها إنّ النرجسات تشتعل افتتاناً في خريف الحديقة قبل هبوب القتلة بشمعتين في هزيع بلا كهرباء.

ليلة ١٧ كانون الأول

ـ ١ ـ

الحرب.. الحرب.. تتفشّى كالزّرْنيخ في جراحنا الضاحكة..
فنجتمع في العراء الليلي: نكتمل أُسرةً أسرةً في الهلع الأول..
أو نفترق أمةً مهدورةَ الدم في الروع العظيم،
نحزم أوهامنا عن السلام في باقةٍ من هشيم نعلّقها على مرمى خليجٍ من دموعنا.. أو سطوعنا.
ربما سيَحدث، هذه الليلةَ، أن تشاطرنا الغيومُ الجافةُ احتفالَ النهاية..
ربما ستقيم الشعائرَ لاستيلاء ترياقٍ شهيٍّ، ومطرٍ من حساء له نكهةُ السهول، وزوابعَ من حلوى المقابر المجانية.
وقد تنظّف السحبُ أصواتنا من غبار المراثي البليدة..
ثم تغرز الضحكَ في جوارحنا حتى تصير أضلُعنا مرايا تستولدنا فينا وتُكاثِرُنا كلَّ ليلةٍ لنقوى على تحمّل نشرات الأخبار..
هكذا نهيِّئ الغرفَ والأجسادَ والليلَ والهواءَ واللغةَ لهبوب القتلة بصواريخهم الأربعمائة،
عابرةً صحارى الأسلاف.

ـ ٢ ـ

مهلاً أيتها الصغيرة..
دعينا نضفر جدائلك بفراشات من حريرٍ صخريٍّ تذود عنك الحرائقَ والفانتوم..
ثم مهلاً أيتها الصغيرة..
لا تطيلي التساؤلَ عن التفاح، والپيتزا، و«مَنِّ السما»، والجواربِ الواقية من الإشعاع، والقمصانِ الواقيةِ من الحياء، والدميةِ الناطقة.
لا.. لا تسألينا عن اللّه الذي ترسمينه هالةَ ضوءٍ في أقاصي العُلى..
لا.. لا أيتها الصغيرة.. لا تسألي عمّا فعلناه لترسل الجحيماتُ صواريخَها إلى حدائق جوعنا وذهولِ الطوابير أمام الرغيف..
اِنسَيْ حكاياتِ القصاص، وردِّدي ما حكته «فيروز» عن «شادي»..
أسمعينا ما رَوَتْه الأميرةُ عن خلود الراحلين
في قارب الضوء قبل انهمار الرزايا إلى ثغرةٍ في الفؤاد.

ـ ٣ ـ

الليلة تُوغِل في انتصافها.
فتولَدُ ثعالبُ الصحراء من فولاذ السفن،
أو تجهضها الطائراتُ في مسرّات اللهب،
فيوغل الليلُ في الفجيعة
يوغل الليلُ في الفجيعة
أو نتقي الموتَ بليلٍ أخير..
* منقوشٌ فوق منصّة الرؤيا في لوحِ تقاويم الحروب:
حَسْبُ المرء أن يعرف الفجيعةَ ليمنح الحبَّ..
لذا: نستعير الضوءَ من عتمةٍ في زقاقٍ أليف..
ونرشّ المستنقعاتِ بأعيادٍ لم تدجِّنها الروزناماتُ العلنيةُ والصحف..
أو نتلظّى في جحيم الغارة التسعين ونحن نرتّل الهبات السرية لأشباهنا، ثم
نروح إلى شغفٍ بهيٍّ نستثني به:
ـ صدعَ الجدار العتيق..
ـ غصنَ العريشة المائلة
نستثني الآجرّة المثلومةَ من آخر المر والأقحوانةَ التي هزمت الرمادَ..
واليماماتِ التي تتحرّى البريد في عري أشجار التين.
نستثني كلَّ هذا من النسيان، ونخشى عند السكون المهدّد موتَ الهواتف في فداحة القصف..
نتردد برهةً في أن نرفع المساع، فينفر خيطُ دمٍ من الرنين.

ـ ٤ ـ

ترنّم الصغيرةُ عند انتهاء الغارة الأخيرة أغنيةَ «شادي»
فنضحك..
أو يستدير النحيبُ على أشواقنا.
نرقص أو تميد بنا الفكرةُ القاتلة.
نضحك أو تتماوت الجدرانُ في المرايا
ثم نهزّ بوجهِ السماء قناديلنا الرمليّةَ
أو
نطفئ الحربَ بابتكار بلادٍ من دماء البلاد..

ليلة ١٨ كانون الأول

ـ ١ ـ

تقاويم حب
تقاويم نهايات
قرون حروب مستديمة

تقاويم تقيس الدهرَ بالأشلاء، والأولادَ بالمراثي، والمدنَ باتساع المقابرِ أو بجموع الراحلين.
عندما ينفجر الصاروخُ الخمسون بعد المائتين، تنطش التقاويم على «جسر الشهداء» أو تتكسر أحجارُها في «ساحة الحرية»
وتزحف روزناماتُ القرن إلى شموسٍ غاربة أو أقمارٍ مزيفة في فضاءٍ زُحَليّ..
عندئذٍ تنسحب الأعوامُ بجلال اليائسين إلى كهوف أسلافنا المنيفة، ويروج الليل سواد الثعالب ويترك فوق هاماتها وَسْمَ أجدادنا الثموديين.

ـ ٢ ـ

مَنْ يؤكّد للفانتوم جهات الجمال؟
مَنْ يرشد صاروخَ «الكروز» إلى خبزٍ متبّلٍ بالشعراء الغامضين والدخان العباسيّ؟
مَنْ يأخذ بيد القذيفة إلى خسوف الأمل بين القميص المضرّج بالبلازما والمعطفِ المسفوكِ على الأنين؟

ـ ٣ ـ

ربما.. عندما تحرثون الليلَ بما حطّ من طيور الغاق والزاغ والقبّرات،
وتقنصون بالرجفة أزيزَ الصاروخ
وهو يمرّ بين السطح وعريشةِ الياسمين،
ربما عندما تخرقون فجرَ الشظايا بما تيسّر من سورة الرعد..
سوف تمرّون عندئذٍ من رواق الدموع إلى سلام الضحايا،
أو تترنحون فوق سراط العرب بين جحيم وجحيم..

ـ ٤ ـ

هكذا ترسل النوافذُ أفلاذَها زجاجاً يصرع شجرَ النارنج،
ترسل الظلماتُ شهقةَ الفوانيس
إلى نضارة الورد والغمام،
وترسل الأبوابُ حنُوَّ النخيل إلى فلول المتسوّلين..
بعدئذٍ.. تنام التقاويمُ في الفكاهات التي ارتجلناها لساعات الجحيم
وتغوينا العقودُ الذبيحة باحتمالات قرون كبيسة..
من ظلمات وحيد القرن..
أو بأعوامٍ لها عشرون محاقاً.

ليلة ١٩ كانون الأول

ـ ١ ـ

نحقن الوجعَ بالحِبْر..
ونكفّن الموتَ بأوراقنا.
نحن سلالةٌ مجانين بعذوبةٍ قمرية..
سلالةٌ حكماء منفلتين من أناقة الحكمة وسراط الأمثال.
نحن عنادل طائشةٌ تفرّ من مصائد الجدوى وأقفاص النشيد..
تدوّننا الموسوعاتُ في فصول الحب
فيتوارى حضيضُ الحروب في الأضرحة العتيقة.

ـ ٢ ـ

نفكّك المدرّعاتِ بلغة الماء وشهقاتِ العنب،
ونصوغ من المدافع المهجورة تصاريفَ العبارة واليمام،
ونحتسي رحيقاً من دبسِ النخل والخل والزنجبيل الهندي،
على مرأى من ألواح «آشور بانيبال» وتشريعات «اورنمو»، ومسلاّت الأكدي «سرجون» الجميل.
ندعوهم لقرع الأنخاب
على وهج الصواريخ ومصادفات النجاة.
ندعوهم.. فيعوّقهم موتُهم الملكيُّ عن فوضى الخطى السائرة إلى مباهج المفارقة..
ينظرون إلينا بعيون سكرى..
وتبرق أضواءُ الانفجارات على خُوذَهم البرونزية
بدرجة شمس معظمة.
تنبهر حدقاتُ الفانتوم ومجسّاتُ القذائف
ثم نسمعهم ينتحبون وهم يتداولون سبيَ أحفادهم الأخير..
يشيرون إلينا بصولجانات من عصيانٍ وكؤوسِ ترياقٍ مضادٍّ للسكوت.
يهمس «أورنمو» من فوق حجارة الشرائع:
«ارشفوا الانعتاقَ وفارقونا،
غادروا الشغفَ بنا واعبروا إلى تقاويم مياه الحياة..».
شكراً أيها الأسلاف الجميلون..
سوف نغادركم سراعاً..
إنما قبل هذا نتوّجكم على حلبات القرابة والأنساب..
ونلغي شجرة الجدود التي تفسّختْ تحت طائلة البترول و«الپاترويت».

ـ ٣ ـ

يقول الخبراء اللامعون في ليل الإبادة:
ـ الرياح لا تأبه باندفاعة الطائرات على سطوح الناقلات،
الخطّافات كفيلةٌ بكبح انغماسها في البحر،
اذن فهي تمضي قدماً إلى بغداد،
برفقةِ صواريخ مبرنقةٍ بلعاب الخليج.

ـ ٤ ـ

كم يحتاج قائدُ الثعالب من رياح عربيةٍ ليُغدق بِركَ الدم على صحائف التضامن
أو يصوغَ بياناتِ الاعتذار من أنفاس الموتى؟
كم يحتاج الملوكُ من بوصلاتٍ طائشةٍ ليرتطموا بأشلائنا الطائرة فوق القباب؟
كم يحتاج الآخر من حروبٍ ليعلن وثيقة انقراضنا؟
لا ندري..
ولكنْ لِنَدَع المسوخَ تعدو في استذئاب شهواتها،
والطائراتِ تَهْدر المكائدَ على سرّة الجسر والمكتبات.
ثم هيّا.. تعالَوْا نرصّ الوسائدَ والقصصَ والأغاني والأرغفةَ الباقيةَ وتقويمَنا الضوئيَّ في زوايا الحجرات..
ونتقي القذائفَ الليزرية.. ببلاغة الإهمال. □